الإعجاز البياني عند الإمام عبدالقاهر الجرجاني

✍ أ.د. حسينى علي عطوة علي الزهيري(★)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين.

وبعد: فإن أحق ما تصرف إليه العناية ، وأول ما توجه إليه الهمة هو العلم بكتاب الله تعالى، من حيث تأويله وتفسيره وأحكامه، وتشريعه، وعلومه، ومناهجه ، وبيانه وفصاحته، ووجوه إعجازه وبلاغته ، وما يتعلق به من سائر ما تضمنه من أمور الحياة الدنيا والآخرة .

ومن خلال هذه الأحقية وجدت دافعا يدفعنى إلى اختيار موضوع في ذلك الكتاب الذي لا تفنى عجائبه، ووقع الاختيار على:

"الإعجاز البياني عند الإمام عبدالقاهر الجرجاني" .

دوافع البحث:

كان سر اختياري لهذا البحث ، فضلا عن الأحقية السابقة ، يرجع إلى عدة دوافع ، أهمها:

أولا : أن قضية الإعجاز البياني للقرآن الكريم فيها تحقيق للإمتاع الذهني، وترفيه

(★) أستاذ البلاغة والنقد بجامعة غانا .

للنفس.

ثانيا: أن هذه القضية موضع عناية العلماء منذ ظهور الإسلام حتى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وقد حققت أمرا ذا بال في مجال الثقافة والفكر والبيان .

ثالثا : أن الإمام عبدالقاهر الجرجاني يعد في طليعة النقاد والبلاغيين الذين فهموا القرآن الكريم وتأثروا به .

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن أقسمه إلى مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة ، وفهرس .

المقدمة: ذكرت فيها أهمية الموضوع في الدرس البلاغي ، ودوافعه ، وخطته ، ومنهجه ، وما راعيته فيه .

التمهيد : ترجمة موجزة للإمام عبد القاهر الجرجاني.

قضية الإعجاز البياني عند العلماء .

المبحث الأول : الإعجاز البياني في "دلائل الإعجاز" .

المبحث الثاني : الإعجاز البياني في "الرسالة الشافية" .

المبحث الثالث : مذهب الصرفة ودليل بطلانه عند الإمام عبد القاهر .

الخاتمة : ذكرت فيها أهم ما توصلت إليه من هذا البحث من نتائج .

الفهرس : ويشتمل على فهرس للمصادر والمراجع ، وآخرللموضوعات .

منهج البحث:

استخدمت في هذا البحث المنهج الدراسي التاريخي الاستدلالي، حيث إنني قمت بدراسة الموضوع من جميع جوانبه ، متتبعا آثار الإعجاز البياني عند العلماء حتى الإمام

عبدالقاهر الجرجاني ، مستدلا على ما أقول بالحجة والبرهان .

وقد راعيت الأمور التالية :

ضبط الآيات القرآنية ، وتخريج الأحاديث النبوية ، ونسبة الآبيات إلى قائليها ، وشرح بعض المفردات التي تحتاج إلى بيان .

هذا : ولعلي أكون بهذا البحث قد حققت بعضا مما أصبو إليه من دراسة جانب من جوانب القرآن الكريم ، حتى يكون في ميزان الحسنات . والله أسأل أن يلبس هذا البحث ثوب القبول، فإنه سبحانه أفضل مأمول وأكرم مسؤول .

التمهـــــيد

ترجمة موجزة للإمام عبدالقاهر(*)

هو عبد القاهر أبو بكر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني، نشأ في أسرة فارسية رقيقة الحال ، وتلقى علومه في مدينة جرجان ، وكان محبا للعلم شغوفا به ، فأقبل على الكتب ، لاسيما كتب النحو والأدب يلتهمها ، مقتفيا أثر أستاذه أبي الحسين محمد بن الحسين بن عبدالعزيز الجرجاني ، صاحب كتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه" ، وتتلمذ الإمام عبدالقاهر أيضا على تراث السابقين معتمدا في ذلك على نفسه وفكره الصحيح ، فقد نقل عن سيبويه والجاحظ ، وأبي علي الفارسي وابن قتيبة ، وغيرهم ممن ظهر أثرهم في تأليفه ، مما يدل على اتساع ثقافته .

(*) تنظر ترجمته في: فوات الوفيات، لابن خلكان، جـ 1 صـ 278، 279، ط1283هـ ، وبغية الوعاة للسيوطى صـ310، 311، ط1315هـ، وطبقات الشافعية، للسبكى جـ2 صـ242، وألوان من بلاغة عبدالقاهر، أد/ خليفة حسن خليفة صـ7 ط الأمانة.

بعض مؤلفاته :

1 - المغني ، ثلاثون مجلدا وهو شرح للإيضاح في النحو لأبي علي الفارسي ت(377هـ) .

2 - المقتصد ، مختصرالمغني في ثلاثة مجلدات.

3 - المعتضد ، شرح على إعجاز القرآن للواسطي.

4 - الرسالة الشافعية في الإعجاز، وهو منشور ضمن كتاب " ثلاث رسائل في إعجاز القرآن" بتعليق الدكتور محمد خلف الله ، والدكتور محمد زغلول سلام .

5 - أسرار البلاغة و دلائل الإعجاز.

قضى الإمام عبد القاهر حياته في مدينة جرجان، وتوفي سنة 471هـ ، جزى الله هذا العالم عن العربية خير الجزاء .

قضية الإعجاز البياني عند العلماء

شغلت قضية الإعجاز البياني أذهان العلماء بعد عصر النبوة ، فكانت موضع نظرهم، ومحل عنايتهم .

فهذا أبو عبيدة ت(208هـ) يؤلف كتابه الرائد (مجاز القرآن) ، وعرض فيه لأنواع من أساليب القرآن ، ودلالات الألفاظ على غير معانيها الوضعية التي لها في أصل اللغة .

وفي القرن الثالث نرى أبا عثمان الجاحظ ت(255هـ) يؤلف كتابه (نظم القرآن) ، ويقدم فيه دفاعا عن بلاغة القرآن ضد كل حشوى ورافض، وكافر مباد، ومنافق مقموع كما يقول، وهذا إيضاح من أديبنا الرافعى لسبب تأليف الجاحظ هذا الكتاب بقوله [1] : "ولما

(1) إعجاز القرآن ، للرافعي، صـ151، دار الفكر العربي ، بيروت ، الطبعة التاسعة.

فشت مقالة بعض المعتزلة بأن فصاحة القرآن غير معجزة ، وخيف أن يلتبس ذلك على العامة بالتقليد أو العادة ، وعلى الحشوة من أهل الكلام الذين لا رسوخ لهم في اللغة ، ولا سليقة لهم في الفصاحة ، ولا عرق لهم في البيان ، مست الحاجة إلى بسط القول في فنون من فصاحته ونظمه ، ووجوه تأليف الكلام فيه ، فصنف أديبنا الجاحظ (م 255هـ) كتابه (نظم القرآن) ، وهو فيما ارتقى إليه بحثنا أول كتاب أفرد لبعض القول في الإعجاز، أو فيما يهيئ القول به" وقد غض منه الباقلاني بقوله : "إنه لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى"(1).

وعلى كل حال فدور الجاحظ لم يكن مجرد صرخة في واد ، وإنما كان دورا أساسيا يدعمه فهم حقيقي لقضية البلاغة وقضية الإعجاز مما جعل اسمه يتردد على أقلام الذين كتبوا في قضية الإعجاز موافقة أو مخالفة .

ثم يأتي ابن قتيبة ت(276هـ) ليؤلف كتابه (تأويل مشكل القرآن) ، ويظهر في هذا الكتاب مدى تأثر صاحبه بأبي عبيدة في صوغ أفكاره وتشكيل مقولاته ، وبالجاحظ في رده على الملاحدة ، وتصديه للخارجين، ولكن ابن قتيبة يتفوق عليهما بإحكام المنهج ودقة التبويب .

ونراه يدافع عن القرآن حين طم التحريف واللغو والهجر واللحن وفساد النظم ، فيقول : "فأحببت أن أنضح ، وأرمى من ورائه بالحجج النيرة ، والبراهين البينة ، وأكتشف للناس ما يلبسون"(2).

---

(1) المرجع نفسه .

(2) المشكل ، لابن قتيبة ، نقلا عن كتاب (من البيان القرآني) ، صـ9 ، د/محمد محمد على عبد المجيد

ويظهر في القرن الرابع الهجري أبوعبدالله محمد بن يزيد الواسطي (ت 306هـ) ، وأبوالحسن علي بن عيسى الرماني ت(376هـ) ، وأبوسليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت388هـ).

أما الواسطي، فقد كتب كتابه (إعجاز القرآن) ، يقول الرافعي عنه : "وهو كتاب شرحه عبدالقاهر الجرجاني شرحاً كبيرا سماه (المعتضد) ، وشرحا أصغر منه تظن الواسطي ما بنى إلا على ما ابتدأه الجاحظ ، كما بنى عبدالقاهر في (دلائل الإعجاز) على الواسطي"(1).

وأما الرماني فقد كتب كتابه (النكت في إعجاز القرآن) جوابا عن سؤال لرجل طلب إليه تفسير تلك النكت في إجمال وبدون تطويل في الحجاج ، ويرد الرماني وجوه إعجاز القرآن إلى سبع جهات: "ترك المعارضة مع توافر الدواعي، وشدة الحاجة، والتحدي للكافة ، والصرفة ، والبلاغة ، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة"(2).

ويركز الرماني من هذه الوجوه على البلاغة ، ويرى أن القرآن في أعلى طبقاتها بما هو معجز بلا حدود ... ويحصر الرماني البلاغة في عشرة أقسام هي: الإيجاز، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتمكين ، والمبالغة ، وحسن البيان(3).

(1) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، صـ153 ، للرافعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة التاسعة .

(2) النكت في إعجاز القرآن ، صـ75، ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم) ، تحقيق/ زغلول سلام ، ومحمد خلف الله ، الطبعة الثالثة، دارالمعارف .

(3) المصدر نفسه ، صـ70 .

وأما الخطابي؛ فقد كتب كتابه (إعجاز القرآن) ليبين أن الوجه في إعجاز القرآن الكريم هو أنه "جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أفصح المعاني .. وواضعا كل شيء منها موضعه الذى لا يرى شيء أولى منه ، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه ، مودعا أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم ، منبئا عن الكوائن المستقبلية في الأعصار الباقية من الزمان، وجامعا في ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه"(1).

ويرى الخطابي أن جميع الباحثين في إعجاز القرآن متفقون على أن القرآن معجز ولا يشك أحد في ذلك ، وهذا ما يراه جميع علماء المسلمين على مر العصور.

وفي أواخر القرن الرابع، وأوائل القرن الخامس ظهر أبوبكر الباقلاني (ت403هـ) ، وألف كتابه (إعجاز القرآن)، وقد تصدى فيه لموجة الإلحاد التي حاولت أن تقتلع القرآن من خلاله لتساويه بالشعر، وتوازنه ببعض الكلام ، فهب الباقلاني ليوضح أن إعجاز القرآن يأتى من جهة مفارقته لجميع وجوه النظم المعروف في كلام العرب ، ومباينته لأساليبهم في الشعر والسجع والكلام الموزون غير المقفى، ويقول: "قدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من أصناف البديع ، وليس كذلك عندنا ، لأن هذه الوجوه إذا وقع عليها التنبيه أمكن التوصل إليها بالتدرب والتعود والتصنع لها"(2).

ويتوجه الباقلاني إلى القول بأن الإعجاز القرآني كامن في القيمة الجمالية التي يطالع

(1) إعجاز القرآن ، صـ28 ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن).

(2) من البيان القرآني، صـ12 د/ محمد محمد علي عبدالمجيد ، ط1990م .

بها كل من يتأمله ، ويضيف أن الجمال هنا قيمة ليس من اليسير أن نعبر عنها ، أو نحدد ماهيتها تحديدا رياضيا، فيقول : "فأما منهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه فإن العقول تتيه في جهته ، وتحار في بحره ، وتضل دون وصفه .. وهو أدق من السحر، وأهول من البحر، وأعجب من الشعر"(1).

ويخطو الباقلاني في النظر إلى قضية الإعجاز خطوة أخرى حين ينظر إلى (الوحدة الفنية) (2) في السورة من سور القرآن ، وليس مجرد كلمات من آية ، أو آية من آيات ، وذلك كما فعل في سورة غافر، وسورة النمل ، وأجزاء من سورة فصلت.

ثم يأتى أبوالحسن الشريف الرضي (ت 406هـ) فيؤلف كتابه (تلخيص البيان في مجازات القرآن) ، ويرى بعض الباحثين، منهم الدكتور/ على محمود مقلد ـ أنه لم يظهر قبل كتاب الشريف الرضي كتاب قائم بذاته في مجازات القرآن الكريم ، وقد أشار الشريف الرضي نفسه بذلك؛ إذ يقول في خاتمة كتابه هذا: "وهذا آخر ما وجدناه في القرآن من الألفاظ المستعارة والمجازات الموضوعة مواضع الحقيقة ، ونحن نواصل حمد الله تعالى على توفيقنا لاستطلاع كوامنها ، واستخراج دفائنها ، وهدايتنا من ذلك إلى الغرض الذى ما رمى إليه رام قبلنا، والمضمار الذى ما أجر فيه مجر غيرنا، ومنه سبحانه نستسبغ النعم.."(3).

ثم يأتي القاضي أبوالحسن عبدالجبار الأسد آبادي (ت 415هـ) ليخصص في كتابه الكبير: (المغنى في أبواب التوحيد والعدل) جزءا للكلام عن إعجاز القرآن الكريم ، وليرد

(1) إعجاز القرآن للباقلاني ، صـ148، 149 تحقيق د/محمد عبدالمنعم خفاجي، مطبعة صبيح ، ط أولى ، 1370هـ .

(2) ينظر: أثر القرآن في تطور النقد العربي، للدكتور/ محمد زغلول سلام .

(3) تلخيص البيان في مجازات القرآن ، صـ367 للشريف الرضي، تحقيق د/ على محمود مقلد ، مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان .

هذا الإعجاز إلى الأداء ، وخواص التركيب ، وما يجرى فيه من نسب نحوية.

وهو بذلك يكون قد وضع كما يقول الدكتور/ شوقي ضيف في يد عبدالقاهر مفاتيح النغم الذى وقعه في كتابه (دلائل الإعجاز) ، حتى ليعد هذا الكتاب توضيحا لنظريته في الفصاحة(1).

وفي القرن الخامس الهجرى يظفر البحث القرآني بعقل عربى ممتاز، هو أبوبكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني (ت 471هـ) ، صاحب "دلائل الإعجاز"، و"أسرار البلاغة"، و"الرسالة الشافية"، وفي هذا الأخير أبان عبدالقاهر عن وجهته في تأليفه حين قال في مطالعه : "وهذه جملة من القول في بيان عجز العرب حين تحدوا إلى معارضة القرآن ، وإذعانهم وعلمهم أن الذى سمعوه فائت للقوى البشرية ، ومتجاوز للذى يتسع له ذرع المخلوقين"(2).

إذن وجهته في هذا الكتاب هي إثبات عجز العرب وليس إثبات إعجاز القرآن وسيأتي –إن شاء الله تعالى– حديث شامل في الصفحات التالية أتحدث فيه عن الإعجاز البياني عند الإمام عبدالقاهر الجرجاني، نظرا لأنه موضوع البحث ، وعين الفكرة ، ومقصد الهمة . ولم لا؟! والإمام عبدالقاهر هو الوحيد من بين العلماء الذى جعل البلاغة هي الوجه الوحيد للإعجاز، بينما نجد كثيرا من العلماء قد عد البلاغة من بين وجوه إعجاز القرآن(3).

لقد شغل الإمام عبدالقاهر بإيضاح فكرته في البلاغة وجمال النظم من خلال تطبيقها على القرآن الكريم تطبيقا كبيرا ، ومن ثم كان كتاب "دلائل الإعجاز" مقدمة لفهم

(1) البلاغة تطور وتاريخ ، صـ371، د/ شوقى ضيف ، الطبعة الثامنة ،دار المعارف .

(2) الرسالة الشافية ، صـ117، ضمن " ثلاث رسائل في إعجاز القرآن".

(3) دلائل الإعجاز، صـ35، تحقيق د/ محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة القاهرة بالصنادقية .

الإعجاز، وليس حديثا في صميم الإعجاز نفسه . إن عبدالقاهر رسم منهجا علميا كاملا لدراسة النظم، وجعل هذا المنهج هو مفتاح فهم قضية البلاغة والإعجاز(1).

ومن ثم كان جديرا بالبحث عنه ، وعن آثاره ، وكل من أتى بعده ليتكلم عن الإعجاز القرآني نهل من معينه الذى لا ينضب، وبستانه الذى لا ييبس ، وفي الصفحات التالية نرى ذلك بمشيئة الله تعالى واضحا جلّياً.

المبحث الأول

الإعجاز البياني في "دلائل الإعجاز"

القرآن معجزة النبي ـ ﷺ ـ الكبرى ، الذى تحدى الله به البشرية ، أنزله على قلب نبي أمي، لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولم يثبت عنه أنه تلقى أي شيء من العلوم والمعارف، ولم يتصل بأحد من علماء أهل الكتاب السابقين، إنما كان ما أتى به وحيا خالصا يعجز البشر عنه كل الإعجاز.

وتحداهم ـ ﷺ ـ أن يأتوا بحديث مثله فعجزوا جميعا ، ثم عدل عن ذلك؛ فتحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله وهم عاجزون واجمون ، وهكذا تردوا من عجز إلى عجز، ومن هزيمة إلى هزيمة أخرى ، مما يعد أكبر شاهد وبرهان على إعجاز القرآن .

لقد تحداهم مع أنهم أرباب البلاغة ، وعلماء اللغة والبيان، ولكن هيهات هيهات ... مما يؤكد صدقه (2)، وإعجازه أنه ما زال حتى الآن يتحدى جميع البشر من عباقرة وحكماء وفصحاء وفلاسفة وشعراء . أليس هذا أكبر شاهد؟ ودليل على إعجاز القرآن ، وأنه من

(1) المصدر نفسه، صـ36 .

(2) أحكام التجويد وفضائل القرآن ، صـ171، تأليف/ محمد محمود عبدالعليم، الطبعة الرابعة .

لدن حكيم عليم ؟ ! .

وقضية الإعجاز البياني من القضايا التي تناولها العلماء بالدراسة كما جاء في التمهيد ، إلا أنها أصبحت واضحة بعد أن تناولها بالشرح الإمام عبدالقاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز".

ففي "دلائل الإعجاز" أفاض الإمام في توضيح أن بلاغة القرآن تكمن في نظمه ؛ ذلك النظم المبدع الذى لم يكن فقط في ألفاظه منفردة ، من حيث السهولة والسلاسة ، ولا من حيث أوزان كلماته ، أو فواصل آيه ، ولا من حيث ما فيه من استعارة أو مجاز أو كناية، ولا غير ذلك مما يتعلق بالكلمة ، بل من حيث النظم الذى يجمع ميزات الكلمة مع نسقها الصحيح حسبما يقتضيه علم النحو، هذا النسق الذى يوجد الرابط والصلة بين المفردات ، بحيث يأخذ بعضها بحجز بعض.

وقد كرر الإمام عبدالقاهر هذه المعاني في كتابه "دلائل الإعجاز" أكثر من مرة ، فنراه يقول عندما أراد أن يوضح معنى النظم : "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت ، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك ، فلا تخل بشيء منها ، وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه ، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك : زيد منطلق ، وزيد ينطلق ، وينطلق زيد، ومنطلق زيد ، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد ، وزيد هو المنطلق، وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج ، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج ، وأنا خارج إن خرجت ، وأنا إن خرجت خارج .

فيعرف لكل من ذلك موضعه ، ويجئ به من حيث ينبغى له، وينظر في الحروف التي

تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية ذلك المعنى، فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه ، وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، .. وينظر في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار، والإضمار والإظهار، فيضع كلاً من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة ، وعلى ما ينبغى له.

هذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا، وخطأه إن كان خطأ إلى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم ، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه ، واستعمل في غير ما ينبغى له " (1).

إذن النظم ـ كما يرى الإمام عبدالقاهر ـ لا يكون بوضع كلمات مجردة دون ارتباط كل منها بالأخرى حسبما يقتضيه علم النحو ، وإنما تثبت للألفاظ تلك الفضيلة والمزية بملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ،ودليل ذلك أن الكلمة قد تعجبك في موضع تحققت فيه الملاءمة ، وقد لا تعجبك بعينها في موضع آخر لم تتحقق فيه الملاءمة .

يقول الإمام عبدالقاهر مؤيدا ذلك : " فقد اتضح إذن إيضاحا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، كلفظ الأخدع في بيت الحماسة(2):

(1) دلائل الإعجاز، صـ122 ـ 124 .

(2) البيت للصمة بن عبدالله بن طفيل .

تلفت نحو الحي حتى وجدتنى وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

وبيت البحترى:

وإني وإن بلغتنى شرف الغنى وأعتقت من رق المطامع أخدعى

فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفي من الحسن، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام :

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة ، والإيناس والبهجة.." (1).

ثم يقول الإمام مبينا أن نظم الكلم ليس في توالى ألفاظه في النطق، ولكن في تناسق دلالات الألفاظ وتلاقى معانيها : " ومما يجب إحكامه عقب هذا الفصل الفرق بين قولنا : حروف منظومة وكلم منظومة ؛ وذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط ، وليس بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه ، وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك ؛ لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذى معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق، والفائدة في معرفة هذا الفرق أنك إذ عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في

(1) دلائل الإعجاز، صـ95، 96 .

النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل ..."[1].

وبهذا يكون الإمام عبدالقاهر قد برهن على إعجاز القرآن الكريم من حيث نظمه وبلاغته ، لما فيه من مقتضيات النظم وشروطه ، وما تميز به من سمات أسلوبه ، وميزات تعبيره .

وفضلا عن ذلك فإننا نرى الإمام يفصح عن سمات نظم القرآن قائلا : " أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، ومجارى ألفاظها ومواقعها "[2].

ثم يدلل الإمام عبدالقاهر على البلاغة المعجزة في القرآن الكريم ، فيذكر أنه لو لم يكن موصوفا بالإعجاز البلاغي لما تحدى به فرسان البيان العربي ، ولما طلب منهم أن يعارضوه فلم يستطيعوا، فنراه يقول: " أيجوز أن يكون تعالى قد أمر نبيه ـ ﷺ ـ بأن يتحدى العرب إلى أن يعارضوا القرآن بمثله من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذى إذا أتوا بكلام على ذلك الوصف كانوا قد أتوا بمثله؟ ولابد من "لا"؛ لأنهم إن قالوا : يجوز، أبطلوا التحدي من حيث إن التحدي ـ كما لا يخفى ـ مطالبة بأن يأتوا بكلام على وصف ، ولا تصح المطالبة بالإتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلوما للمطالب ، ويبطل بذلك دعوى الإعجاز أيضا ، وذلك أنه لا يتصور أن يقال : إنه كان عجز حتى يثبت معجوز عنه معلوم ، فلا يقوم في عقل عاقل أن يقول لخصم له : قد أعجزك أن تفعل مثل فعلي، وهو لا يشير له إلى وصف يعلمه في فعله ويراه قد وقع عليه . أفلا ترى أنه لو قال رجل لآخر: إني قد أحدثت في خاتم عملته صنعة أنت لا تستطيع مثلها ، لم تتجه

(1) دلائل الإعجاز، صـ98 .

(2) دلائل الإعجاز، صـ89 .

له عليه حجة ، ولم يثبت به أنه قد أتى بما يعجزه إلا من بعد أن يريه الخاتم ، ويشير له إلى ما زعم أنه أبدعه فيه من الصنعة ، لأنه لا يصبح الإنسان بأنه قد عجز عن شيء حتى يريه ذلك الشيء ويقصد إليه ، ثم لا يتأتى له ، ولا يتصور أن يقصد إلى شيء لا يعلمه ، وأن تكون منه إرادة لأمر لم يعلمه في جملة ولا تفصيل" (1).

ثم بعد ذلك نرى الإمام عبدالقاهر يتناول قضية الإعجاز البياني للقرآن الكريم بشيء من التفصيل.فينفي أن يكون هذا الإعجاز راجعا إلى الكلمة المفردة من حيث مذاقها وهيئتها ، أو من حيث معانيها، أو باعتبار الحركات والسكنات، أو أن يكون راجعا إلى المقاطع والفواصل التي تنتهي بها الآيات ، كما لا يرضى أن يكون السبب في الإعجاز هو سلاسة الحروف وعدم ثقلها على اللسان(2).

وينكر ـ أيضا ـ أن تكون الاستعارة هي الأصل في الإعجاز، مبرهنا على ذلك بالدليل، فيقول : "ولا يمكن أن تجعل الاستعارة الأصل في الإعجاز وأن يقصد إليها ؛ لأن ذلك يؤدى إلى أن يكون الإعجاز في أي معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة ، وإذا امتنع ذلك فيها لم يبق إلا أن يكون في النظم والتأليف ، لأنه ليس من بعدما أبطلنا أن يكون فيه إلا النظم " (3) .

ولكن برغم أن الاستعارة ليست الأصل في الإعجاز إلا أن الإمام عبدالقاهر يجعلها داخلة فيه ومن مقتضياته ، فنراه يقول : " فإن قيل: قولك: "إلا النظم" يقتضى إخراج ما في القرآن من الاستعارة ، وضروب المجاز من جملة ما هو معجز وذلك ما لا ساغ له . قيل: ليس

(1) دلائل الإعجاز، صـ368، 369 .

(2) دلائل الإعجاز ، صـ369 .

(3) المصدر نفسه ، صـ372 .

الأمر كما ظننت ، بل يقتضى دخول الاستعارة والكناية والتمثيل، وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم ، وعنها يحدث ، وبها يكون ، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم ، وهي أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو، فلا يتصور أن يكون ههنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره ، أفلا ترى أنه إن قدر في (اشتعل) من قوله تعالى : ﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾[1] أن لا يكون الرأس فاعلا له ، ويكون (شيبا) منصوبا عنه على التمييز لم يتصور أن يكون مستعارا ، وهكذا السبيل في نظائرالاستعارة فاعرف ذلك " (1) .

وعلى هذا فإن كل استعارة أو مجاز أو كناية لا تتحقق المزية فيها إلا إذا كان تأليفها جاريا على الصحة حسب مقتضيات النحو، ومراعى فيه التخير والمزايا التي يتسنى بها تفضيل تركيب على تركيب ، أو لفظ على لفظ ، حسبما يقتضيه النحو والبلاغة .

إذن فالذى يعنيه الإمام عبدالقاهر من درجات النظم هو ما تعدى دائرة الصحة حسب مقتضيات النحو، إلى دائرة الفضائل والمزايا، وذلك ليتسنى له أن يبين عن "هذا الذى تجدد بالقرآن من عظيم المزية ، وباهر الفضل ، والعجيب من الرصف حتى أعجز الخلق قاطبة ، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القوى والقدر"(2).

ولذلك نراه يؤكد أنه لا يكفي العلم بالنحو فقط لإنشاء نظم حسن فيقول : "واعلم أنا لا نوجب المزية من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه فنستند إلى اللغة ، ولكننا أوجبناها للعلم بمواضعها ، وما ينبغى أن يصنع فيها ، فليس الفضل للعلم بأن "الواو"

(1) سورة مريم : 4 .

(2) دلائل الإعجاز، صـ373 .

(3) نظرية عبدالقاهر في النظم ، صـ63 ، د/ درويش الجندى ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ط 1960م .

للجمع ، و"الفاء" للترتيب بغير تراخي ، و"ثم" له بشرط التراخي ، و"إن" لكذا، و"إذا" لكذا، ولكن لأن يتأتى لك إذا نظمت وألفت رسالة أن تحسن التخير، وأن تعرف لكل من ذلك موضعه ، وأمر آخر إذا تأمله إنسان أنف من حكاية هذا القول فضلا عن اعتقاده ، وهو أن المزية لو كانت تجب من أجل اللغة والعلم بأوضاعها وما أراده الواضع فيها لكان ينبغى ألا تجب إلا بمثل الفرق بين "الفاء" و"ثم" و"إن" و"إذا" وما أشبه ذلك مما يعبر عنه وضع لغوي، فكانت لا تجب بالفصل وترك العطف، وبالحذف والتكرار، والتقديم والتأخير، وسائر ما هو هيئة يحدثها لك التأليف ، ويقتضيها الغرض الذى تؤم ، والمعنى الذى تقصد ، وكان ينبغى أن لا تجب المزية بما يبتدئه الشاعر والخطيب في كلامه من استعارة اللفظ للشيء لم يستعر له ، وأن لا تكون الفضيلة إلا في استعارة قد تعورفت في كلام العرب ، وكفى بذلك جهلا "[1].

ولما كان ارتباط الإعجاز بالنظم هكذا ، فقد رأى الإمام عبدالقاهر أن يبحث الأمور الكثيرة التي يتألف منها النظم الحسن ، وتتحقق بها الفضيلة في الكلام .

لذلك ضمن كتابه (دلائل الإعجاز) مباحث في الاستعارة بأنواعها ، والمجاز والكناية، وكذا الفصل والوصل ، والقصر والاختصاص ، والتقديم والتأخير، والحذف ، والتعريف والتنكير، وغير ذلك من المسائل البلاغية التي لها مدخل في مزايا النظم ، مع التوخي لمعاني النحو، وقد بحث هذه الموضوعات من خلال شرحه لنصوص قرآنية ، وتناوله لكثير من نظم العرب ونثرهم .

وكتابه (دلائل الإعجاز) يتميز بمباحثه الكثيرة التي تدو ر كلها حول نظرية النظم التي

([1]) دلائل الإعجاز، صـ261، 262 .

أراد المؤلف أن يثبت من ورائها إعجاز القرآن الكريم من حيث نظمه وبلاغته ، حيث تضمن القرآن الكريم كل ميزات وفضائل النظم الحسن ، ومقتضياته العديدة .

وبذلك نستطيع أن نقول : إن الإمام عبدالقاهر الجرجاني هو المبتكر لنظرية النظم ، وإن كان بعض السابقين قد أشار إلى أن القرآن معجزة بنظمه وحسن تأليفه ، ومنهم الخطابي ، والقاضي عبدالجبار "ولكنهم لم يستطيعوا أن يكشفوا عن وجه الإعجاز كما كشفه عبدالقاهر في كتابه (دلائل الإعجاز) ، ولذلك نرى أنه رجل عظيم وصل بفكره الثاقب إلى حل أعقد مسألة واجهت المسلمين ، وخلص الدارسين من الجدل العنيف والنقاش الحاد "(1).

والآن يطيب لي أن أقدم أنموذجا من نظم القرآن الكريم ، وتعليق الإمام عبدالقاهر الجرجاني عليه ، حتى يتبين ويتأكد تفسيره للنظم بالدليل والبرهان ، ويظهر مدى جهده في ذلك .

"... وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (2) فتجلى لك منها الإعجاز ، وبهرك الذى ترى وتسمع ، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة ، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة ؟ وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها ، وأن الفضل تناتج ما بينها ، وحصل من مجموعها .

(1) عبدالقاهرالجرجاني بلاغته ونقده ، صـ264 ، د/ أحمد مطلوب ، وكالة المطبوعات بالكويت.

(2) سورة هود : 44 .

إن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها ، وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه ، وهي في مكانها من الآية ؟ قل : (ابلعى) ، واعتبرها وحدها ، من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها .

وكذلك فاعتبر سائر ما يليها . وكيف بالشك في ذلك؟ ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ، ثم أمرت ، ثم أن كان النداء بـ (يا) دون (أي) نحو: يا أيتها الأرض ، ثم إضافة الماء إلى "الكاف"، دون أن يقال: ابلعى الماء ، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها ، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل: (وَغِيضَ الْمَاءُ) ، فجعل الفعل على صيغة (فعل) الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر، وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: ﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ ، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ ، ثم إضمار السفينة قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة "قيل" في الخاتمة بـ "قيل" في الفاتحة . أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها ، تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع ، وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب" [1].

ولكن برغم هذا الجهد فإن الإمام عبدالقاهر لم يسلم من المآخذ فقد أخذ عليه[2]:

أولا: لقد نثر مباحثه في كتابه (دلائل الإعجاز) فجاءت على غير نسق علمي ، ولا

(1) دلائل الإعجاز ، صـ32 ، تعليق/ محمد رشيد رضا ، مكتبة القاهرة ، سنة 1961م .

(2) ينظر: عبدالقاهر الجرجاني ، صـ53، 54، د/ أحمد أحمد بدوى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والإنباء والنشر ، والنظم في دلائل الإعجاز، صـ30، د/ مصطفى ناصف.

نظام يفصل كل مبحث عن الآخر، وكثيرا ما كان يبدأ في مبحث من المباحث ، ثم يخرج إلى فكرة أخرى يشرحها ويفصلها ، ثم يعود إلى المبحث الذى بدأه .

ثانيا: برغم أن كتابه معنون بدلائل الإعجاز إلا أنه لم يقصر مباحثه أو أكثرها على بيان ما في القرآن من بلاغة دالة على إعجازه ، بل كان تناوله للشعر والنثر يأخذ حيزا كبيرا من هذا الكتاب أكثر من حيز تناوله لآيات القرآن ، بل ويقف في بعض الأحيان من أمثلة الشعر ومن شواهد القرآن موقفا متشابها عندما يوضح فكرة ما ، وإن كانت له وقفات لطيفة أوضح فيها الأسرار البلاغية للآيات التي عرض لها .

ويمكن أن يُرَدَّ على النقد الأول بأنه ليس من الإنصاف أن نطلب من الإمام عبدالقاهر أكثر مما كان في عصره ، وأن نطبق عليه مناهج البحث الحديث .

كما يمكن أن يُرَدِّ على النقد الثاني بأنه وإن كان فيه كثير من الصحة إلا أن الإمام عبدالقاهر كان يصارع أفكارا خاطئة ، فكان يذكر الفكرة والأمثلة والشواهد للتدليل عليها، وحينما وصل إلى ترسيخ فكرة النظم صرح بأن القرآن معجز بنظمه ، ولو كان يقول بعد كل تعليق على آية أو بيت : إن القرآن معجز وإنه فاق كل كلام لأطال من غير فائدة ؛ لأنه لا يشك في ذلك مؤمن فليس هناك حاجة إلى أن يكرر ذلك(1).

وبعد : فهذه المآخذ كما رأينا لا تقلل من شأن الإمام بل سيظل إماما في النقد والبلاغة ، ويكفيه أنه أدى الواجب كما رآه ، وأراح نفسه بعد أن رد الشبهات ، وفضح زيف الآراء ، فهو ممن فهموا القرآن، وتأثروا به ، وحلوا مشكلة من قضايا إعجازه .

وسنواصل ـ إن شاء الله تعالى في الصفحات التالية ـ الحديث عن الإعجاز البياني في

(1) ينظر: عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده ، صـ267، 268 بتصرف .

"الرسالة الشافية" للإمام عبدالقاهر الجرجاني .

المبحث الثاني
الإعجاز البياني في "الرسالة الشافية"

"الرسالة الشافية" تهدف إلى إثبات عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم بالبراهين والأدلة ، وأبطلت من خلالها شبها أرادها المبطلون .

وقد أثبت الإمام عبدالقاهر الجرجاني في رسالته تلك عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم بنوعين من الدلائل : دلائل الأحوال ، ودلائل الأقوال ، فيقول: "وإذا ثبت أنهم ـ العرب ـ الأصل والقدوة فإن علمهم العلم ، فعلينا أن ننظر في دلائل أحوالهم وأقوالهم حين تلى عليهم القرآن ، وملئت مسامعهم من المطالبة بأن يأتوا بمثله ، ومن التقريع بالعجز عنه ، وبت الحكم بأنهم لا يستطيعونه ، ولا يقدرون عليه ، وإذا نظرنا وجدناها تفصح بأنهم لم يشكوا في عجزهم عن معارضته والإتيان بمثله ، ولم تحدثهم أنفسهم بأن لهم إلى ذلك سبيلا على وجه من الوجوه "(1).

ثم نرى الإمام عبدالقاهر يفصل دلائل أحوال العرب على عجزهم عن معارضة القرآن الكريم ، فيقول : "وأما الأحوال فدلت من حيث كان المتعارف من عادات الناس

(1)الرسالة الشافية ، صـ118، 119، ضمن " ثلاث رسائل في إعجاز القرآن" تحقيق أ/ محمد خلف الله ، وأ/ محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة .

التي لا تختلف، وطبائعهم التي لا تتبدل أن لا يسلموا لخصمهم الفضيلة ، وهم يجدون سبيلا إلى دفعها ، ولا ينتحلون العجز وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم ، كيف وأن الشاعر أو الخطيب أو الكاتب يبلغه بأقصى الإقليم الذى هو فيه من أن يبأى [1] بنفسه ، ويدل بشعر يقوله ، أو خطبة يقوم بها ، أو رسالة يعملها، فيدخله من الأنفة والحمية ما يدعوه إلى معارضته ، وإلى أن ما يظهر عنده من الفضل ويبرز ما لديه من المنة ، حتى إنه ليتوصل إلى أن يكتب إليه ، وأن يعرض كلامه عليه ببعض العلل، وبنوع من التمحل ، هذا وهو لم ير ذلك الإنسان قط ، ولم يكن منه إليه ما يهز ويحرك ، ويهيج على تلك المعارضة ، ويدعو إلى ذلك التعرض ، وإن كان المدعي ذلك بمرأي منه ومسمع كان ذلك أدعى إلى مباراته ، وإلى إظهار ما عنده ، وإلى أن يعرف الناس أنه لا يقصر عنه ، أو أنه أفضل منه ، فإن انضاف إلى ذلك أن يدعوه الرجل إلى مماثلته ، ويحركه لمقاولته ، فذلك الذى يسهر ليله ، يسلبه القرار، حتى يستفرغ مجهوده في جوابه ، ويبلغ أقصى الحد في مناقضته .

وإذا كان هذا واجبا بين نفسين لا يروم أحدهما من مباهاة صاحبه إلا ما يجرى على الألسن من ذكره بالفضل فقط ، فكيف يجوز أن يظهر في صميم العرب ، وفي مثل قريش ذوى الأنفس الأدبية ، والهمم العالية ، والأنفة والحمية من يدعي النبوة ، ويخبر أنه مبعوث الله تعالى إلى الخلق كافة ، وأنه بشير بالجنة ، ونذير من النار ، وأنه قد نسخ به كل شريعة تقدمته ، ودين دان به الناس شرقا وغربا ، وأنه خاتم النبيين ، ثم يقول وحجتي أن الله قد أنزل عليَّ كتابا عربيا مبينا، تعرفون ألفاظه ، وتفهمون معانيه ، إلا أنكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله ، ولا بعشر سور منه ، ولا بسورة واحدة منه ، ولو جهدتم جهدكم ، واجتمع

---

(1) يبأى : يفخر ويباهي.

معكم الجن والإنس، ثم لا تدعوهم نفوسهم إلى أن يعارضوه ، ويبينوا كذبه في دعواه ، مع إمكان ذلك"[1].

ثم بعد ذلك نرى الإمام عبدالقاهر يبرهن على عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم بأنهم لو كان في مقدورهم أن يعارضوا القرآن لعارضوه ، ولو عارضوه لأبطلوا رسالة محمد ـ ﷺ ـ ، ولما ألجأهم ذلك إلى الخوض في حرب ضروس معه ، وإلى قطع الرحم ونحو ذلك، فكيف يتركون السهل وهو الممكن ، ويخوضون في شيء صعب مهلك؟![2].

ثم ينتقل الإمام عبدالقاهر الجرجاني إلى تفصيل دلائل أقوال العرب على عجزهم عن معارضة القرآن الكريم ، فيذكر أنها كثيرة ، وهي تتمثل في اعتراف أعداء محمد ـ ﷺ ـ بحسن بيان القرآن ، وكذلك تأثر من سمعه بقلب مفتوح فأسلم ، فذكر قصة الوليد بن المغيرة ، وقصة عتبة بن ربيعة اللذين تأثرا عند سماع كل منهما القرآن من الرسول ـ ﷺ ـ ولكنهما لم يسلما عنادا وتكبرا ، وخوفا على ضياع مكانتهم ومكاسبهم في الجاهلية .
ويحكي الإمام عبد القاهر قصة إسلام أبي ذر الذى ما إن سمع القرآن حتى تفتح قلبه للحق ، وتأثر فأسلم عن يقين[3].

وهكذا وضح الإمام عبدالقاهر الجرجاني دلائل أحوال وأقوال العرب على عجزهم عن معارضة القرآن الكريم لما في أسلوبه من تركيب بالغ الدقة ، ونسق عال رفيع يعجز البشر عن مراعاته .

---

(1) الرسالة الشافية ، صـ120،119 .

(2) تنظر"الرسالة الشافية" ، صـ120 ،121 .

(3) الرسالة الشافية، صـ 125،122 .

ثم بعد ذلك اتجه الإمام عبدالقاهر نحو شبهات المبطلين، فعرض بعضها ، وأبطل ها بالدليل والبرهان.من هذه الشبه أن هناك من الشعراء في الجاهلية من أقر الناس لهم بالفضل والمزية على جميع الشعراء كامرئ القيس، وزهير، والنابغة، والأعشى ، وهؤلاء لو تحدوا إلى معارضة القرآن لقاموا بها واستطاعوها .

ونرى الإمام عبدالقاهر يبطل هذه الشبهة بقوله: "هذا الفضل لهؤلاء الشعراء على ما فيه لا يقدح في موضوع الحجة ؛ وذلك أنهم كانوا ـ العرب ـ كما لا يخفى يرون أشعار الجاهليين وخطبهم ، ويعرفون مقاديرهم في الفصاحة معرفة من لا تشكل جهات الفضل عليه ، فلو كانوا يرون فيما رووا مزية على القرآن ، أو رأوه قريبا منه ، أو بحيث أن يعارض بمثله ، أو يقع لهم ـ إذا قاسوا أو وازنوا ـ أن هذا الذى تحدوا إلى معارضته لو تحدى إليه من قبلهم لاستطاعوا أن يأتوا بمثله لكانوا يدعون ذلك ويذكرونه ، ولو ذكروه لذكر عنهم ، ومحال إذا رجعنا إلى أنفسنا استشفعنا حال الناس فيما جبلوا عليه ، أن يكونوا قد عرفوا لما تحدوا إليه ، وقرعوا بالعجز عنه شبها ونظما ، ثم يتلى عليهم: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1]، فلا يزيدون في جوابه على الصرمت ، ولا يقولون : لقد روينا لمن تقدم ما علمت وعلمنا أنه لا يقصر عما أتيت به ، فمن أين استجزت أن تدعي هذه الدعوى؟ فإذا كان من المعلوم ضرورة أنهم لم يقولوا ذلك ، ولا رأوا أن يقولوا ، ولو على سبيل الدفع والتلبيس والشغب الباطل .. ثبت أنهم قد كانوا علموا أن صورة أولئك الأوائل صورتهم، وأن التقدير فيهم أنهم لو كان في زمان النبي ـ ﷺ ـ ثم تحدوا إلى معارضته ـ لكانوا في

(1) سورة الإسراء : 88 .

مثل حال هؤلاء الكائنين في زمانه ، وإذا كان هذا هكذا فقد انتفي الشك ، وحصل اليقين الذى تسكن معه النفس ، ويطمئن عنده القلب وأنه معجز ناقض للعادة ، وأنه في معنى قلب العصا حية ، وإحياء الموتى في ظهور الحجة على الخلق كافة "[1].

ومن هذه الشبه التفرد بالعظمة البيانية في عصر من العصور، فلم لا يكون الرسول من هؤلاء المتفردين بعظمة البيان؟

ونرى الإمام عبدالقاهر يرد على أصحاب هذه الشبهة بما يبطلها، فيقول : " بأنهم إنما أتوا من سوء تدبيرهم لما يسمعون ، وتسرعهم إلى الاعتراض قبل تمام العلم بالدليل ؛ وذلك أن الشرط في المزية الناقضة للعادة أن يبلغ الأمر فيها إلى حيث يبهر ويقهر، حتى تنقطع الأطماع عن المعارضة ، وتخرس الألسن عن دعوى المداناة ، وحتى لا تحدث نفس صاحبها بأن يتصدى ، ولا يجول في خلد أن الإتيان بمثله يمكن ، وحتى يكون بأسهم من إحساسهم بالعجز في بعضه مثل ذلك في كله " [2].

ثم يؤكد إبطال هذه الشبهة ، موضحا أن من بلغ أمره في المزية مبلغا اشتهر به حتى أصبح حديث الناس كان له معارضون في عصره ، فها هو ذا امرؤ القيس الذائع الشهرة ، وصاحب المزية في مضمار الشعر، عارضه وباراه علقمة الفحل ، وكان الحكم بينهما أم جندب زوجة امرئ القيس ، وقد فضلت علقمة على زوجها ، فغضب عليها زوجها وطلقها[3] ، وكذلك جرى بين الحارث اليشكرى وبين امرئ القيس معارضة في تتميم

([1]) الرسالة الشافية: صـ126 ، 128 .

([2]) الرسالة الشافية ، صـ 129 .

([3]) الموشح ، صـ28، 29، للمرزباني ، تحقيق/ محمد علي البجاوى ، دار نهضة مصر، وديوان امرئ القيس ، صـ64،69 ، دار صادر، بيروت، ورسالة الخطابي صـ59 ضمن ثلاث رسائل.

أنصاف الأبيات[1].

كما يوضح الإمام عبدالقاهر أن الأخبار تدل على خلاف لم يزل بين الناس في امرئ القيس وفي غيره ، أي أشعر؟ ولم يستقر رأي الناس على تقديم شاعر استقرارا يرفع الشك ، ويروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رأيا في تفضيل امرئ القيس أثناء مناقشة له مع أبي الأسود الدؤلى الذى تعصب لأبي دؤاب ، وجعله أشعر الشعراء ، كما يروى عن ابن عباس قول عمر بن الخطاب في تفضيل زهير بن أبي سلمى ، وجعله شاعر الشعراء ، وكذلك يذكر رواية يحيى بن سليمان الكاتب الذى قال : بعثنى المنصور إلى حماد الراوية أسأله عن أشعر الناس ، فأتيته ، قلت : إن أمير المؤمنين يسألك عن أشعر الناس ، فقال : ذاك الأعشى صناجها[2].

ومن هذه الشبه أن عجز العرب قد نشأ من أنهم لا يستطيعون النظم في مثل معاني القرآن ، لا لأنهم لا يستطيعون مثل ذلك النظم . وقد عرض الإمام عبدالقاهر برهنة أصحاب هذه الشبهة ، حيث استدلوا بعادات الناس وطبائعهم من أن الواحد منهم تواتيه العبارة ، ويطيعه اللفظ في صنف من المعاني ، ويمتنع عليه مثل تلك العبارة وذلك اللفظ في صنف آخر، ثم يعرضون نماذج رتبوا عليها قولهم: "وإذا كان الأمر كذلك لم يمتنع أن يكون سبيل لفظ القرآن ونظمه هذا السبيل، وأن يكون عجزهم عن أن يأتوا بمثله في طريق العجز عما ذكرنا ومثلنا "[3].

فيجرد الإمام عبدالقاهر قلمه للرد على هذه الشبهة ودحضها بأن تلك الشبهة يكون لها وجه إذا كان التحدي بأن يعبروا عن معاني القرآن أنفسها وبأعيانها بلفظ يشبه لفظه ،

(1) الرسالة الشافية، صـ130، ورسالة الخطابى، صـ59ـ61 .

(2) الرسالة الشافية ، صـ130ـ 132 .

(3) المصدر نفسه ، صـ138 ـ 141 .

ونظم يوازى نظمه، وهذا تقدير باطل" فإن التحدي كان إلى أن يجيئوا في أي معنى شاءوا من المعاني بنظم يبلغ نظم القرآن في الشرف أو يقرب منه، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾[1] أي : مثله في النظم ، وليكن المعنى مفترى كما قلتم ، فلا إلى المعنى دعيتم ولكن إلى النظم ، وإذا كان ذلك كذلك بينا أنه بناء على غير أساس ورمى من غير مرمى؛ لأنه قياس ما امتنعت فيه المعارضة من جهة، وفي شيء مخصوص على ما امتنعت معارضته من الجهات كلها وفي الأشياء أجمعها "[2].

وهكذا رأينا الإمام عبدالقاهر الجرجاني قد فند في رسالته الشافية شبها لبعض الأشقياء والمشككين ، وأبطلها بالحجة والبرهان بأسلوب رائع ومقنع ، ثبت من خلاله أن العرب قد عجزوا عن معارضة القرآن الكريم ؛ لما به من نظم بديع .

وفي الصفحات التالية ـ إن شاء الله تعالى ـ عرض لمذهب الصرفة ودليل بطلانه عند الإمام عبدالقاهر، مما يؤكد مدى عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم ؛ لما به من نسق قويم .

المبحث الثالث

مذهب الصَّرْفة ودليل بطلانه عند الإمام عبدالقاهر

يرى القائلون بالصرفة أن القرآن لم يتجاوز في بلاغته مستوى الطاقة البشرية ، أي أن العرب كان في قدراتهم معارضته ، والإتيان بمثله ؛ لأن بلاغته في طوقهم ومقدورهم ، ولكن الله هو الذى صرفهم عن هذه المعارضة لأمر من الأمور التالية :

1 – أن بواعث هذه المعارضة ودواعيها لم تتوافر لديهم .

---

(1) سورة هود آية (13) .

(2) الرسالة الشافية ، صـ141 .

2 – أن صارفا إلهيا زهدهم في المعارضة ، فلم تتعلق بها إرادتهم ولم تنبعث إليها عزائمهم ، فكسلوا وقعدوا على رغم توافر الدواعى والبواعث .

3 – أن عارضا إلهيا مفاجئا عطل مواهبهم البيانية ، وعاق قدرتهم البلاغية ، وسلبهم أسبابهم العادية إلى المعارضة ، رغم تعلق إرادتهم بها ، وتوجه همتهم إليها(1).

والقول بالصرفة أصبح مذهبا له أنصاره ، وهم بعض المعتزلة ، وغيرهم أمثال المرتضى من الشيعة ، وابن حزم الظاهري ، وأول من قال به شيطان المتكلمين أبوإسحق إبراهيم بن سيار النظام أستاذ الجاحظ(2).

وردا على هذا المذهب نرى الإمام عبدالقاهر الجرجاني يدلل ويبرهن على بطلانه ، فيرى أنهم لو أدركوا كونهم عاجزين بعد أن كانوا قادرين لقالوا للرسول ـ ﷺ ـ : إنا كنا نستطيع قبل هذا الذى جئتنا به ، ولكنك قد سحرتنا ، وحلت بما جئت به بيننا وبين مقدرتنا على معارضته ، وكان الواجب أن يتذاكروا ذلك فيما بينهم ، وأن يشكوه بعضهم إلى بعض ، فيقولوا : ما لنا قد نقصت قرائحنا ، وحدث كلول في أذهاننا ، ولكن لم يرو عنهم قول في هذا المعنى .

ولو كان الإعجاز بالصرفة ما كان وجه التحدي أن يقول الرسول : إني قد جئتكم بما لا تقدرون على مثله ، ولو احتشدتم له ، ودعوتم الإنس والجن إلى نصرتكم فيه ، وإنما يقال: إني أعطيت أن أحول بينكم وبين كلام كنتم تستطيعونه ، وأمنعكم إياه ، وأن أفحمكم على القول البليغ ، وما شاكل ذلك (3) .

---

(1) تأملات في علوم الكتاب العزيز، جـ1 صـ212، 213 ، د/ محمد محفوظ محمد زين العابدين.

(2) البرهان في علوم القرآن ، جـ2 ، صـ93، للزركشي، والإتقان في علوم القرآن ، جـ 2، صـ 118، للسيوطى ، ودراسات حول الإعجاز البياني في القرآن صـ271، د/ المحمدي عبدالعزيز الحناوي.

(3) الرسالة الشافية صـ146 ـ 149 .

ونرى الإمام عبدالقاهر ـ أيضا ـ يؤكد في موضع آخر فساد هذا المذهب ، فيبين : " أنه لو لم يكن عجزهم عن معارضة القرآن ، وعن أن يأتوا بمثله لأنه معجز في نفسه ، لكن لأن أدخل عليهم العجز عنه ، وصرفت هممهم وخواطرهم عن تأليف كلام مثله ، وكان حالهم على الجملة حال من أعدم العلم بشيء قد كان يعلمه .. لكان ينبغي ألا يتعاظمهم ، ولا يكون منهم ما يدل على إكبارهم أمره ، وتعجبهم منه ، وعلى أنه بهرهم ، وعظم كل العظم عندهم ، ولكان التعجب الذى دخل من العجز عليهم ، ولما رأوه من تغير حالهم ، ومن أن أحيل بينهم وبين شيء قد كان عليهم سهلا ، وإن سد دونه باب كان لهم مفتحا ، أرأيت لو أن نبيا قال لقومه : إن آيتى أن أضع يدى على رأسى هذه الساعة ، وتمنعوا كلكم من أن تستطيعوا وضع أيديكم على رءوسكم ، وكان الأمر كما قال ، مم يكون تعجب القوم ؟ أمن وضعه يده على رأسه ؟ أم من عجزهم أن يضعوا أيديهم على رءوسهم؟ "(1).

وهكذا أبطل الإمام عبدالقاهر مذهب الصرفة ، وأظهر ضعفه ، مبينا أن القرآن الكريم بذاته قد أعجز العرب قاطبة على أن يأتوا بمثله فعجزوا مع وجود القدرة لديهم .

(1) دلائل الإعجاز، صـ371 ، 372 .

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد النبي الأمي ، وعلى آله وأصحابه والتابعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين . وبعد : فإنه يمكننا بعد هذا التطواف مع :

" الإعجاز البياني عند الإمام عبدالقاهرالجرجاني "

أن ندون هذه النتائج المهمة :

أولا: أن قضية الإعجاز البياني شغلت أذهان العلماء قديما وحديثا ، فكانت موضع نظرهم ، ومحل عنايتهم .

ثانيا : أجمع العلماء على أن القرآن الكريم معجز ببلاغته ونظمه ، بيد أن الإمام عبدالقاهر قد تجرد بقلمه ، وأتحف القضية بكتابين ، هما : "دلائل الإعجاز" و"الرسالة الشافية" ، وقد فصل فيهما نظرية النظم ، وفند شبها لبعض الأشقياء والمتشككين أبطلها بالحجج والبرهان .

ثالثا : أن الإمام عبدالقاهر رد على من ذهب إلى أن سبب الإعجاز هو الصرفة ردا شافيا بأسلوب علمى مقنع .

رابعا: أن القرآن الكريم معجز بذاته ، في روعة بيانه ، ووضوح ألفاظه ، وأسلوبه الذى ليس له مثيل لا بشعر ولا بنثر، وقد عجز البشر جميعا عن الإتيان بمثله ، ولا بمثل أقصر سورة منه .